الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

جواباً على السؤال المُلح:
لماذا نجح اليابانيون وفشلنا برغم أننا سبقناهم في القرن التاسع عشر؟

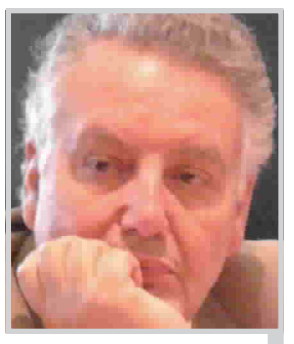

د. شاكر النابلسي

لجأ الفكر العربي في عصر النهضة الممتد من القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين إلى التوفيقية ، وكان من أسباب تخلف هذا الفكر، وبالتالي من أسباب عدم اكتمال مشروع النهضة والتقدم الحضاري. ويلاحظ فاروق مردم ، في بحثه أنه "ابتداءً من الطهطاوي وانتهاءً بالحرب العالمية ، برر المفكرون العرب الأفكار والدعوات الغربية بالأحكام العامة في النصوص المقدسة ، أو بالقياس والاستحسان والاستصلاح.

وسارت الأجيال اللاحقة على نهج الأولين. فاستندت إلى الدين في كل دعوة اجتماعية وسياسية بما في ذلك الاشتراكية" ("ملاحظات حول الفكر العربي في عصر النهضة"). وكان من مظاهر هذه التوفيقية التبريرية رد كل تقدم إنساني إلى النصوص المقدسة، حتى بالنسبة إلى الشعوب التي لم تقرأ ولم تسمع بحرف واحد من النصوص المقدسة. ومثال ذلك:

١- رد الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) مثلاً في كتابه "تخليص الأبريز في تلخيص باريز" التقدم الذي شاهده في فرنسا إلى الإسلام وتعاليمه وخاصة ما يتعلق بالشورى. وأن فرنسا أخذت عن الإسلام ما تركناه وأهملناه، ولم نلتفت إليه.

٢- سأل شيوخ الأزهر الشيخ محمد عبده بعد رجوعه من فرنسا عما وجده في فرنسا بعد أن زارها ودرس فيها، فقال: إن في فرنسا إسلاماً بلا مسلمين، وأن في مصر مسلمين بلا إسلام.

٣- والتفت كثير من كتاب وباحثي التيار الإسلامي في العصر الحديث إلى تجارب أوروبا الغربية والشرقية، وردوا كثيراً من هذه التجارب إلى الإسلام ومنها الاشتراكية. فقرأنا سيلاً من الكتب بشأن وجود الاشتراكية في الإسلام (من أبرز هذه الكتب، كتاب "اشتراكية الإسلام" لمصطفى السباعي (١٩١٥-٦٤) المرشد العام للإخوان المسلمين في سوريا) إلى درجة أن السيدة خديجة بنت خويلد، زوج الرسول، كانت تسمى في العهد الناصري بـ "أم الاشتراكيين".

الجينات العربية وعقدة التقدم

يرى بعض الباحثين، أن من عوائق التقدم الحضاري العربي، سبباً خاصاً بالعرب أنفسهم وبتكوينهم الاجتماعي والثقافي، وكما يقول رياض الريس، " فالعجيب أن العرب لا يقدرون على الانفصال عن الماضي أو التنكر له، ولا يقدرون كذلك أن ينفصلوا عن الحياة. وظلوا حيارى على الجسر المعلق بين الماضي والحاضر. وهذا الوضع الشاذ جعلهم يتسامحون كثيراً مع من ينتقد حياتهم، ولكنهم يرفضون التسامح مع من ينتقد تاريخهم. وعلى هذا الأساس ظل التناقض قائماً وحاداً بين صراعهم الحضاري من أجل التقدم وبين تقديسهم لتاريخهم. وظلت جاذبية التاريخ أقوى من قوى التقدم الحضاري"،(مقدمة كتاب الصادق النيهوم، "الإسلام في الأسر"، ص١٤)

قصور الثقافة عن دورها

وكان من عوائق التقدم الحضاري العربي أن الثقافة العربية وقفت من قضية التحديث موقفاً سياسياً انتهى إلى حد نيل البلاد العربية لاستقلالها السياسي. ولم يمتد دور الثقافة إلى ما هو أبعد من ذلك وهو التطوير الاجتماعي والاقتصادي المستقل. وكان المطلوب لكي نتقدم حضارياً أن "نحظى بالاستقلال التام ومعناه التطور المادي" وليس التطور السياسي فقط، كما يقول رشيد الخالدي في كتاب ("الفكر السياسي العربي في مواجهة تحديات العصر"، ص٢٤٦).

هُزال وشلل الفلسفة العربية

كان لفصل الفلسفة عن اللاهوت في الثقافة الغربية أثره الكبير على التقدم الحضاري في الغرب. "حيث عززت الفلسفة الفكر النقدي وحررته من إكراهات السلطة الدينية والسياسية. وتحت تأثير سلطة النقد التي أصبحت مرجعية الحقيقة الوحيدة جرى فصل الكنيسة عن الدولة" (قاسم جميل، الاختلاف والاعتراف، ص ٣). في حين أن الفلسفة العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، كانت ضعيفة إن لم تكن حركتها مشلولة تماماً. ولم يظهر لدينا في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين غير قلة قليلة كتبت تأريخاً للفلسفة، ولم تنشئ فلسفة عربية. وكان على رأس هؤلاء المؤرخ الفلسفي اللبناني يوسف كرم (ت ١٩٥٥) والمؤرخ الفلسفي المصري مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥-١٩٤٦) شقيق علي عبد الرازق. ولم يتم انتعاش جزئي للفلسفة ومجالاتها إلا في النصف الثاني من القرن العشرين عندما ظهرت مجموعات من دارسي الفلسفة في المغرب العربي ممن اتصلوا بالثقافة الفرنسية على وجه الخصوص، وتأثروا بها، وراحوا يدرسون التاريخ والأديان والاجتماع على ضوء مناهج فلسفية حديثة. ولكن برغم هذا لم تتأسس هناك فلسفة عربية ذات خصوصية نابعة من الثقافة العربية. ولعل السبب يعود إلى أننا كنا متخلفين علمياً وثقافياً، وأن الفلسفة في أية حضارة من الحضارات لا تتقدم إلا بتقدم العلوم، وتقدم الثقافة ذاتها. وأن الفلسفة تنهل دائماً من معينين: العلوم والثقافة.

فإذا كان هذان المعينان العربيان فارغين في القرن التاسع عشر والعشرين، فمن أين ستنهل الفلسفة؟

التجربة اليابانية عقدة عربية

في جدل التقدم الحضاري في الفكر العربي المعاصر كانت التجربة اليابانية دائماً هي الشاهد الحاضر على تخلفنا وعدم تحقيقنا لمشاريعنا النهضوية. وكان السؤال المثار دائماً وإلى هذه اللحظة هو: لماذا تقدمت اليابان وتأخرنا نحن؟ فنحن كنا أساتذة اليابانيين في مطلع القرن التاسع عشر، عندما بعث إمبراطور اليابان بوفد ياباني إلى مصر، لكي ينقلوا تجربة محمد علي باشا ونجاحاته، إلى اليابان. وبالفعل فقد طبقت اليابان الكثير من خطط محمد علي باشا في المجال العسكري والمدني، فتقدمت بعد ذلك، وتأخرنا نحن. فقد نجح الطلبة وخاب الأساتذة. وسالت الأقلام بعد ذلك، في الفكر العربي المعاصر تحلل هذه الظاهرة.. ظاهرة تقدم شعب كاليابان وتأخرنا نحن. وقد لاحظت أن معظم الذين تحدثوا وكتبوا في هذا الموضوع لم يلتفتوا إلى خصوصية الثقافات وقابليتها أو عدم قابليتها إلى التلاقح مع الثقافات الأخرى، ومنها الثقافة العربية واليابانية. ففي ظني أن الثقافة العربية التي هي في مجملها ثقافة دينية، وبالتالي فهي ثقافة مقدسة، كان من الصعب عليها أن تكون منفتحة على الثقافات الأخرى كاليابانية، التي هي أيضاً ثقافة دينية، ولكنها دينية أرضية (استناداً على ما قاله بوذا ذات مرة، فيما معناه، من أنه لا يهتم بما يجري في السماء، ولكن همه الأكبر هو ما يجري على الأرض) وليست دينية سماوية كما هو الحال مع الثقافة العربية- الإسلامية، بحيث أن تراثها مقدس لا يجس ولا يمس. وبالتالي فإنه لا يخضع للنقود. والتراث غير القابل للنقود هو في الوقت ذاته غير قابل للصمود أمام الثقافات الأخرى المتلاقية معه أو المتصافحة معه. ومن هنا، كانت المقارنة غير صحيحة بين الثقافتين العربية –الإسلامية واليابانية، والتي تقف كل منهما على طرفي نقيض. ولكي نوضح الفروق بين هاتين الثقافتين، دعونا نعقد مقارنة بين الثقافة العربية واليابانية، لكي نعرف الفروق بينهما.

الفروق بين الثقافتين اليابانية والعربية

ملامح الثقافة العربية:

١- تنبع وتستند الثقافة العربية إلى موروث ديني سماوي مقدس، لا يجس ولا يمس. وهو بالتالي لا يخضع للنقد أو المناهج العلمية الحديثة في التحليل والتفكيك والزحزحة.

٢- الجانب الروحي والعاطفي في الثقافة العربية- الإسلامية أكبر بكثير من الجانب المادي.

٣- كان موقع بلاد العرب في قلب خطوط التجارة والملاحة سبباً لتحديات ثقافات كثيرة للثقافة العربية ما أكسب الثقافة العربية مناعة ضد الغزوات الثقافية الخارجية وبالتالي شكّل لدى الثقافة العربية-الإسلامية مع الزمن طبقة كلسية سميكة طاردة، حالت دون انفتاحها على الآخرين وتلاقحها مع الثقافات الأخرى.

٤- لم تكن الثقافة العربية الحديثة مُعناةً بما في الغرب من صناعات وعلوم. ولم تكن تُعنيها قيم الغرب الأخلاقية بقدر ما كانت تعنيها قيم الغرب العلمية وإنجازاته العلمية. والثقافة اليابانية لم تعتبر الغرب كافراً وتمتنع عن الأخذ عنه بل هي أخذت عنه الكثير وتركت القليل.

٥- اعتبرت الثقافة اليابانية نفسها أنثى وليست ذكراً وأن عليها لكي تُنجب أن تتلاقح مع الآخرين ولكن بعقد زواج ياباني وليس غربي. ومن هنا استطاعت اليابان أن تأخذ الكثير عن الغرب وتُبقي على لباس الكومينو.

٦- الثقافة اليابانية ثقافة جماعية وليست فردية. وبالتالي فإن وحدة المجتمع والمصنع هي الجماعة لا الفرد (هناك قول، بأن قوة الاقتصاد الياباني نابعة من التكتلات الاقتصادية والشركات المندمجة ببعضها، وهو تعبير عن روح الجماعة التي تسود المجتمع الياباني). والفرد الياباني لا يمتلك صناعة القرار. والجماعة دائماً هي صانعة القرار على مختلف المستويات.

٧- انكبت الثقافة اليابانية على استخدام جوانب مفيدة في التراث في الصناعة والإدارة. وفي هذا يقول البرت اليكس بانك في كتابه (قدر اليابان، ص ٣٩): "إن اليابان لم تستطع أن تتفوق هذا التفوق الاقتصادي المذهل من دون أن تكون قد استلهمت الكثير من مبادئ وأفكار الشرق القديم والحديث، ومن دون أن تكون قد تمسكت بالجوانب الروحية الكثيرة التي كانت سائدة فيها والتي أفادت اليابان في أن تضع لنفسها دستوراً اقتصادياً حكيماً أفادها في مسيرتها الاقتصادية الحالية الظافرة.

٨- كان الفكر الياباني في الثقافة اليابانية وراء الآلة والمحراث، وفي المختبرات، وفي مكاتب الإدارة، وبين ملفات الدراسات التسويقية.

٩- كان هم الثقافة الأكبر ليس النقد فقط، ولكن إيجاد الحلول للمجتمع على المستويات كافة.

١٠- لم تكن الثقافة اليابانية أسيرة مفاهيم ثقافية، كالتي كانت في الثقافة العربية. وهي توصف بأنها ثقافة متحركة.

١١- كانت الثقافة اليابانية ثقافة متواضعة تواضع الشعب الياباني، تطلب المعرفة في كل زمان ومن كل مكان. ولم تقف موقف المعلم بقدر ما وقفت دائماً موقف التلميذ النجيب.

١٢- وأخيراً، كان همُّ الثقافة اليابانية أن تعلّم الفرد الياباني كيف يصنع أدق الأدوات وأجودها بأرخص الأسعار، وكيف يغزو أسواق العالم.

ملامح الثقافة اليابانية:

١- تنبع وتستند الثقافة اليابانية، إلى موروث ديني أرضي ليست له قداسة الأديان السماوية. وهو معرض للنقد، كما أنه يخضع للمناهج والطرائق الحديثة في التحليل والتفكيك والزحزحة.

٢- الجانب المادي والعقلاني في الثقافة اليابانية أكبر من الجانب الروحي. فبوذا نفسه واقع مادي مجسم في كل معبد.

٣- كانت اليابان تعيش في جزيرة معزولة عن التيارات الثقافية العالمية ولم تنفتح اليابان على العالم إلا قبيل الحرب العالمية الأولى. وبالتالي لم ينشأ لدى هذه الثقافة رد فعل من جراء غزو الثقافات الأخرى لها. ولم تتشكل على سطحها طبقة كلسية سميكة، تحول بينها وبين التلاقح مع الثقافات. بل هي أخذت من الجميع، ثم سارت وحدها بخطواتها الخاصة.

٤- كانت الثقافة اليابانية مُعناةً بما في الغرب من صناعات وعلوم. ولم تكن تُعنيها قيم الغرب الأخلاقية بقدر ما كانت تعنيها قيم الغرب العلمية وإنجازاته العلمية. والثقافة اليابانية لم تعتبر الغرب كافراً وتمتنع عن الأخذ عنه بل هي أخذت عنه الكثير وتركت القليل.

٥- اعتبرت الثقافة اليابانية نفسها أنثى وليست ذكراً وأن عليها لكي تُنجب أن تتلاقح مع الآخرين ولكن بعقد زواج ياباني وليس غربي. ومن هنا استطاعت اليابان أن تأخذ الكثير عن الغرب وتُبقي على لباس الكومينو.

٦- الثقافة اليابانية ثقافة جماعية وليست فردية. وبالتالي فإن وحدة المجتمع والمصنع هي الجماعة لا الفرد (هناك قول، بأن قوة الاقتصاد الياباني نابعة من التكتلات الاقتصادية والشركات المندمجة ببعضها، وهو تعبير عن روح الجماعة التي تسود المجتمع الياباني). والفرد الياباني لا يمتلك صناعة القرار. والجماعة دائماً هي صانعة القرار على مختلف المستويات.

٧- انكبت الثقافة اليابانية على استخدام جوانب مفيدة في التراث في الصناعة والإدارة. وفي هذا يقول البرت اليكس بانك في كتابه (قدر اليابان، ص ٣٩): "إن اليابان لم تستطع أن تتفوق هذا التفوق الاقتصادي المذهل من دون أن تكون قد استلهمت الكثير من مبادئ وأفكار الشرق القديم والحديث، ومن دون أن تكون قد تمسكت بالجوانب الروحية الكثيرة التي كانت سائدة فيها والتي أفادت اليابان في أن تضع لنفسها دستوراً اقتصادياً حكيماً أفادها في مسيرتها الاقتصادية الحالية الظافرة.

٨- كان الفكر الياباني في الثقافة اليابانية وراء الآلة والمحراث، وفي المختبرات، وفي مكاتب الإدارة، وبين ملفات الدراسات التسويقية.

٩- كان هم الثقافة الأكبر ليس النقد فقط، ولكن إيجاد الحلول للمجتمع على المستويات كافة.

١٠- لم تكن الثقافة اليابانية أسيرة مفاهيم ثقافية، كالتي كانت في الثقافة العربية. وهي توصف بأنها ثقافة متحركة.

١١- كانت الثقافة اليابانية ثقافة متواضعة تواضع الشعب الياباني، تطلب المعرفة في كل زمان ومن كل مكان. ولم تقف موقف المعلم بقدر ما وقفت دائماً موقف التلميذ النجيب.

١٢- وأخيراً، كان همُّ الثقافة اليابانية أن تعلّم الفرد الياباني كيف يصنع أدق الأدوات وأجودها بأرخص الأسعار، وكيف يغزو أسواق العالم.

تكريت في القرنين الخامس والثامن للميلاد

أ.فؤاد يوسف قزانجي

تكريت tikrtمدينة رافيدينية قديمة دعاها الاشوريون برتو او برتنا او برتل وتعني القلعة او القسم المحصن من المدينة. كانت مستوطنة او محطة قائمة على الطرق القديمة بين شمال البلاد ووسطها او على مقربة منها والتي تسكنها الاقوام منذ عصور ما قبل التاريخ اثناء انتقالها من المناطق المتقدمة الجبلية وهضابها في اعلى بلاد الرافدين وخصوصا الاقوام الاكدية والاشورية التي نزحت من الشمال. واول مركز لمدينة برتو التي تعني باللغة الاكدية القلعة الحصينة كان اثناء حملة الملك الاشوري آشور ناصر بال الثاني "٨٨٣-٨٥٩ ق.م." المتوجهة نحو اقليم "زامو"، وكذلك في حملة الملك الاشوري شلما نصر الثالث "٨٥٨-٨٢٤ ق.م."، كما وردت اشارات مختلفة ابان حكم الملك سركون الثاني "٧٢٢-٧٠٥ ق.م." ما يدل على ان الآشوريين قد ضموها الى مملكتهم، وتدل اسس الحصن الموجودة في تكريت انه بناء آشوري شيدت عليه قلعة رومانية. كما اثبتت احدى الرقم الطينية التي وجدت في مدينة آشور انه كان بين برتو وآشور تجارة ناشطة. وخلال فترة الصراع بين الاشوريين والكلديين وبشكل خاص بعد استقلال بابل وانتقالها من دور الدفاع الى دور الهجوم، كانت تكريت احدى العقد المهمة التي تنافست على حصنها هاتان القوتان انتهت بسقوط المدينة في ايدي الملك البابلي نبوبولاصر عام ٦١٥ ق.م.

وبعد سقوط الدولة الاشورية، تبعثرت القوى الاشورية واندمجت بالمجتمع الرافديني. وورد اسم المدينة بلفظة برتو ايضا في عقد تجاري يعود الى العصر الكلدي "البابلي الحديث" ما يشير الى استمرار احتفاظ هذه المدينة وقلعتها باسمها وبأداء وظيفتها العسكرية كمنطقة مراقبة القوافل القادمة من بابل الى آشور ونينوى والعكس بالعكس. على الرغم مما اصاب بلاد الرافدين من ضعف وتخريب خلال الاحتلال الاخميني واليوناني والفرثي، خاصة بعد سقوط بابل، لكنها استمرت في اهميتها كمركز للقوافل التجارية. "١"

وفي القرون الميلادية الاولى، قدمت الى المنطقة قبائل عربية، وبعد فترة آمن قسم منهم بالمسيحية واختلطوا مع سكان المدينة من الكلديين والاراميين، واخذت في النهوض تدريجيا. واصبحت مدينة مسيحية زاهرة منذ القرن الرابع الميلادي على الرغم من السيطرة الساسانية على البلاد، واصبح حصنها واسوارها قوة بيد اهالي تكريت الذين كانوا في معظمهم مسيحيين وقد اطلقوا عليها تسمية ارامية او سريانية وهي "تجريت" اي المتجر او مكان التجارة. وشهدت تجريت صراعا بين النساطرة واليعاقبة، لكن التحول الى اليعقوبية اي الكنيسة الارثوذكسية في تجريت قد اكتمل في القرن السادس، واستمرت تحتفظ بكرسي الكنيسة الارثوذكسية حتى عام ١١٠٠ حينما ضمت هذه الاسقفية الى اسقفية الموصل في مركزها قره قوش او في دير مار متي.

وكان المفريان ماروثا التكريتي "ت٦٣٩" قبل مجيئه الى ابرشية تكريت قد عكف لمدة عشر سنوات على دراسه كتب الفلسفة اليونانية بعد اتقانه اللغتين الارامية والسريانية. وعلى اثر الخسائر التي مني بها الملك كسرى الثاني في حروبه مع الروم، انقلب ناقما على المسيحيين في العراق وايران. وكان مار ماروثا مشرفا على دير شيرين في طيسفون عاقولا ومكث فيها حتى موت كسرى. وبعد بضعة سنوات انتخب وسيم مطرانا على تكريت وذلك في عام ٦٢٨ مع الولاية الكنسية على عشر ابرشيات. "٢"

وكانت تجريت قد احتلت من قبل الجيوش البيزنطية لفترة قصيرة، وعلق الروم آمالهم في ان تصبح تجريت موقعا لوقف زحف الجيش الاسلامي بعد حصار دام اربعين يوماً بيد المسلمين، واصبحت بعد دخول الجيوش الاسلامية عام ٦٣٧ م قاعدة لها عند اتجاهها الى الجزيرة او الموصل. وذكر ابن حوقل في المئة الرابعة للهجرة، ان اكثر اهلها نصارى وان لهم ديراً هناك. وكانت المدينة على ما ذكر المقدسي معروفة بصناع الصوف فيها، وانها موطن السمسم، وزاد المستوفي على ذلك من ان البطيخ يزرع فيها اكثر من مرة في السنة. وذكر ابن جبير حين مرّ بتكريت سنة ٥٥٨٠ "١١٨٤م" انه وجد سورا يطوف بالمدينة محيطه ستة الاف خطوة وابراجه مكينة. "٣"

ومدينة تكريت القديمة يحيط بها سور طوله نحو سبعة كيلومترات وقطره كيلومترين تقريبا يبدأ من فوق الجرف القادم على دجلة الى الشمال من مركزها وينتهي في القسم الجنوبي مكونا شكلا هلاليا غير منتظم. وتشير الاثار الاشورية المكتشفة في اسسه ان السور كانت تسنده من الخارج ابراج نصف دائرية وهي من ابتكارات العمارة الاشورية التي من ابرز اثارها الحصن الفريد الذي اعاد بناءه الجيش الروماني.اما كنائسها السبعة إضافة الى الكنيسة الخضراء الواقعة في الجهة الجنوبية من المدينة، فما تزال اقسام من ابراجها قائمة، ويذكر ان المفريان مار ماروثا شيدها لتكون مركزا سريانيا دينيا وثقافيا في العراق. ويشير المسعودي "ت٩٦٦م" انه حضر مناظرات دينية في هذه الكنيسة. ويقدر بعض المؤرخين ان تكريت في منتصف القرن السابع الميلادي كانت تضم ما يقارب من "٨٠٠٠٠" نسمة اغلبية سكانها من المسيحيين.

المصادر

"١" جابر خليل ابراهيم. "تكريت من خلال المصادر الاثرية" مجلة المؤرخ العربي. بغداد ٣٩٤، ١٩٨٨ "ص٢٨٤-٣٠٢"
"٢" ابونا، "الاب"البير. اداب اللغة الارامية. بيروت: دار المشرق، ط٢/١٩٩٦، "ص٣٢٨"
"٣" لسترنج، غي. بلدان الخلافة الاسلامية، تعريب وتحرير بشير فرنسيس وكوركيس عواد. بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٤"ص٨١"